التعليم العالي والبعوث العلمية

بقلم عبد المجيد حسن

الاستاذ في الاعدادية المركزية ببغداد

نحن نعيش اليوم في عصر حضارة عظيمة هي الحضارة الغربية وأي جهل من أمة من الامم بفرع من فروع هذه الحضارة معناه التخلف والقعود والحرمان من ثمراتها وهي حق وملك مشاع للناس جميعاً . ولعل مما يفيدنا ان لا ننسى ان هذه الحضارة مدينة للحضارة الاسلامية التي سادت هذه البلاد دهراً طويلا من الزمن واظلت العالم وحملت الى اهله ثمرات شهية فيها ذكاء للقلوب وغذاء للعقول وتهذيب للاخلاق وقوة للارواح ووسائل للحياة الطيبة . ولقد كان روح الحضارة الاسلامية كروح الحضارة الغربية المعاصرة ، الطموح الى الالمام قدر المستطاع بكل الافكار والمعارف والعلوم والفنون النافعة في الحضارات المعاصرة والسابقة ، وكانت عقلية العلماء في الاقطار العربية متفتحة لتقبل كل تطور تأتي به روح العصور التي يعيشون فيها فاذا اردنا نحن ورثة العرب ان يكون لنا من جديد مكان مرموق في حضارة اليوم فعلينا ترك الجمود والتشبع بهذه الروح والاحاطة بكل ثمرات الذهن ونتاج العبقرية والاغتراف من كل ينابيع الفكر والروح ولا يمنعنا هذا من ان نحتفظ بطابعنا القومي وتقاليدنا الصالحة ذلك لأن حياة الامم التي تنعم اليوم بهذه الحضارة تقوم على طابعين هما عنصرا العلم والعمل ، علم خالص ينتج العمل ، ومعارف تهدي الى السيطرة على عناصر الطبيعة وتسخيرها لمنافع الحياة والتغلب على ما يعترض الحياة الانسانية من عقبات ، وعمل ناتج عن كل بحث يغذو العقل و يغميه ويمكنه من استكشاف قوانين الطبيعة واستغلالها لمنافع الانسان واستخدام الصناعات والفنون التطبيقية وسائل لهذا الاستغلال. فحضارة اليوم مزاج من هذين العنصرين . فيها البحث الخالص عن العلم الخالص وفيها البحث العملي عن الفنون . التطبيقية التي تستنبط من هذا العلم الخالص نفسه والتي لا يمكن أن توجد ولا أن تنتج للناس ما ينعمون به وما يتقلبون فيه من الترف ومناعم الحياة بدون هذا العلم الخالص نفسه . ان الامة المتحضرة بعلمائها الذين يفقهون العلم ويحبونه و يقدرون على تعمقه والانتاج فيه والاضافة اليه ، وبعامليها القادرين على العمل حقاً وقد اثار العلم لهم طريق العمل المجدي وهيأ عقولهم وجسومهم للاقبال عليه والتصرف فيه والقدرة على النهوض باعبائه مع ثقة بالنفس وتحلٍ بأخلاق كريمة وسيرة فردية اجتماعية صالحة تقيم الصلات على احسن صورة بين الناس فيها المودة والاحترام والايمان بالواجب وبالحق والاكبار للنفس والسمو بها عن الصغائر . وسبيل الامة الي ان تظفر بهذا وذاك ، هذه المدارس والمعاهد على اختلاف درجاتها التي تنتهي بالتعليم الى أعلى السلم تنشئها في وطنها وترعاها خير الرعاية وتنفق الدولة ، و ينفق الاغنياء القادرون من المثقفين تثقيفاً صحيحاً عليها بسخاء ، أو ترسل ابناءها الى هذه المعاهد في غير بلادها ريثما يتسنى لها أن تستكمل اسباب نهضتها وان تنشئ في وطنها امثال تلك المعاهد التي تحفظ لها كرامتها بين الامم إذ تمكنها من المشاركة في تنمية الثروة الانسانية من علم وفلسفة ومن أدب وفن ، تلك هي المعاهد العالية التي عرفت في عصرنا بالجامعات واختصت بالتعليم العالي . ومن أقرب الامثلة الينا الشقيقة مصر التي كان من اكبر عوامل نهضتها تلك البعوث التي بدأت من عهد محمد علي الكبير الى اوربه لتلقي العلم فيها . ولقد كانت بعوثاً صناعية وتجارية وهندسية واخرى طبية وغيرها قانونية وثقافية ، ثم كان اعضاء هذه البعوث هم اداة الاصلاح الذي كان يرمي اليه هذا المصلح الكبير ونواة الدولة المصرية الحديثة ، ولا تزال مصر حتى يومنا هذا و بعد ان انتشر التعليم بفروعه والوانه ودرجاته فيها توالي بعثاتها الى اوربا وامريكا تختار لها المعاهد وتنفق عليها وتراقب سيرها الى ان يتم طلابها تحصيلهم و يعودوا الى بلادهم ويجدوا المجال الذي فيه يعملون . ان الرغبة في العلم دفعت

بكثيرين من المصريين ان يتلقوا العلم في جامعات الغرب بنفقاتهم الخاصة ، ولقد كان من آثار هذه العناية بالبعوث العلمية أن ظهر بمصر علماء في الدين والفلسفة والسياسة والادارة والاجتماع والاقتصاد والزراعة والتجارة والطب والتربية وغيرها من العلوم والفنون وعرفت لهم آراء محترمة في أوساط العلم العالمي ونظريات حديثة في العلوم لا تقل عما لنظرائهم من علماء الغرب ومع ذلك فان مصر تعد الى الآن في بدء نهضتها فاين نكون نحن من ركب الحضارة ؟

لقد أخرتنا الاحداث والخطوب التي صبت على بلادنا قروناً طوالا عن قافلة الامم بعد ان كنا السادة والقادة وفي الطليعة منها ثم بدأنا حياتنا الحديثة من قريب بعد زوال حكم العثمانية عن بلادنا ثم الاحتلال الانكليزي الذي تلاه حتى أول العقد الثالث من هذا القرن ، ولقد كان المغفور له ساكن الجنان مؤسس الدولة العراقية جلالة الملك فيصل الاول قد ادرك بعبقريته الفذة وايمانه العظيم بفعل العلم والثقافة في نهضات الشعوب أن اللحاق بالامم المتحضرة لايكون بالكلام يرسل ارسالا ولا بالمظاهر الكاذبة والاوضاع الملفقة وانما يكون بان نسير سيرة تلك الامم ونسلك طريقهم لنبلغ يوماً أن نكون لهم اندادا وشركاء في الحضارة الانسانية فيكون لنا مالهم من قوة وسيادة وحرية وكرامة في أوطاننا ومن احترام وتقدير وثقة بين الامم ، وقد بلغ من رعاية العاهل العظيم رحمه الله للعلم والثقافة أن سجل اسمه الكريم في مدرسة ابتدائية متواضعة معلماً ولا يخفى على أحد مغزى عمله الجليل هذا ، كان تفكيره في تثقيف شعبه وعنايته في نشر العلم باقصى السرعة واوسع نطاق يأخذان من وقته الثمين وهو ينشئ ملكا و يبني حياة الشيء الكثير . وجلالته عليه الرحمة أول من فكر فيما فكر لعز الوطن في انشاء الجامعة العراقية وقد انشأها فعلا غير مبال بفقدان الوسائل واقام بنيانها وسيذكر التاريخ أن فيصلا المصلح العظيم عرف الطريق وسلكه الى النصر الحق في الحياة فاقام صرح العلم العالي في بلاده واذا كانت الفواة قد خاست فلا عليه وهو غير ملوم (لقد صح عزمه وابى دهره)

أثار كل هذه الخواطر في نفسي بيان وزارة المعارف عن البعثات العلمية لسنة ١٩٤٦ بعد ان فترت حركتها في سني الحرب العالمية الشداد العجاف ، وعناية الحكومة بهذه الحركة العلمية المباركة والضرورية لنهضتنا في غيبة الجامعة العراقية محمودة مشكورة يذكرها الشعب بالخير والرضى والارتياح . ومع كل ذلك فلن ادع هذه الفرصة المناسبة تمر دون التنبيه على اشياء اراها لازمة لايتاء هذه البعوث ثمارها المرجوه ولاجتناب كثير من العيوب التي لازمتها في الماضي وقلت من نتائجها . واول ما يبدو لي من هذه الاشياء ، القسمة الضيزى في حظ البنين والبنات من البعثة ومشروع أن يكون للذكر مثل حظ الانثيين على اكثر تقدير في بعض عرض الدنيا الزائل ، وأما في العلم فلا ، والامة نسيج الامهات والامبراطورية البريطانية العتيدة من صنع الامهات الانكليزيات وان التي تهز المهد بيمناها تهز العالم بيسراها على حد ما قال نابليون ولا ينبغي ان تقف قيود وسدود من مواضعات وتقاليد ليست من الدين والعلم في شيء دون بلوغ فتياتنا امهات انفذ اعلى درجات التعليم العالي الصحيح ، وثاني هذه الاشياء ان نصيب الزراعة والري والصناعات الزراعية وتربية الدواجن وما اليها من البعثة قليل بالقياس الى ان البلد زراعي قبل كل شيء وبعد كل شيء ، هكذا خلقه الله ولا تبديل لخلقه ، وان نهضته لا تقوم الا على اساس من الزراعة ممكين ثم يتبع الزراعة ما يتبعها . وقبل يومين فقط قرأت كما قرأ الناس في صحيفة من صحفنا اليومية ان مديرية الزراعة العامة كتبت الى وزارة الاقتصاد تقول انها قد وسعت اعمالها وزادت عدد المزارع النموذجية في البلاد فهي تحتاج الى عدد من الاخصائيين للنهوض بالعمل على الوجه الاكمل وتقترح استقدام عدد من الاخصائيين من انكلترة وامريكا وتعيين ثلاثين طالباً من خريجي مدرسة الزراعة للتدريب على اعمال مكافحة الجراد والاستفادة من معلوماتهم الزراعية .

ان العراق بطوله وبعرضه وبرافديه وباسقات نخله كما

يقول الرصافي من اخصب بقاع الارض تربة وأوفرها مياهاً واجودها مناخاً ، دراخلاف الرزق على ملايين من البشر في عصور اليد العاملة لا في عصر الآلة الجبارة عجيب وغريب اهمالنا لأول مرفق من مرافق حياتنا واهتمامنا بما هو دونه طوال الحكم الوطني في البلاد ، لم لم تكن لنا وزارة للزراعة قائمة برأسها هي عندي اجدى الوزارات ، لم لم يبذل من الاموال والجهود على نشر الثقافة الزراعية متوسطة وعالية مثلما يبذل للثقافة الحقوقية والاعداد للوظائف وغيرهما . لم لم تنشأ على مدى الاعوام مدرسة زراعية متوسطة في كل قضاء ومدرسة ثانوية زراعية في كل لواء وكلية واحدة للزراعة على الاقل ، ولم لم يوفد في كل بعثة اكبر عدد ممكن للتخصص في الري والزراعة والصناعة الزراعية وفي المراعي والغابات وتربية الدواجن وما الى ذلك ، وما أوسع المجال لشبابنا لو تعلموا واعدوا وهيء لهم الجو الصالح وشجعوا ودفعوا الى العمل ان يعملوا في الزراعة ويجعلوا من العراق الخصيب جنة من جنان الارض .

وثالث هذه الاشياء انتخاب اعضاء البعوث وتطبيق الشروط بجد وحزم على ان تكون شروطاً جامعة مانعة كما يقول المناطقة جامعة للمزايا التي يجب ان تتوافر فيمن يبعثون ومانعة من ترجيح بغير مرجح لخير شخص معين وقد حدث ان ارسل شباب للدراسة في بلد لا يعرفون لغته او يعرفون منها مالا يسمح لهم بمتابعة الدروس وحدث ان طلابا إختيروا عبثاً وهم لا يصلحون لاية دراسة من الدراسات وقد عادوا نهائياً بلا تعلم كثير بعد أن انفقت الدولة عليهم مالا كثيراً وتصدقت الجامعة عليهم بشهادة لا تصدق على ضميرهم وربما تولت جمعيات في فرنسا وامريكا اكثرها من الصهيونيين بيعه اسئلة الامتحانات او كتابة الاطروحة عنه وتجارة الاطروحات والشهادات معروفة في هذين البلدين على ما يقال ، كما حدث ان كانت رغبة بعض اعضاء هذه البعثات في مادة معينة ولكن فرض عليهم دراسة مادة غيرها .

كل هذه المساوي، عيوب في اخلاقنا وطعن في نزاهتنا وعدلنا يجب ان نقلع عنها وان ننظر بعيداً بعيداً جداً ونتصور خطر هذا الظلم الاجتماعي وعواقبه الوخيمة القريبة والبعيدة لا على المصلحة العامة وحدها بل على مصلحة كل فرد منا الخاصة كذلك ، وظالم اليوم مظلوم غداً والدنيا دول ، والحياة الاجتماعية لا تطيب لشعب ولا تستقيم الا على العدل الذي يعطي كل ذي حق حقه ويسدي بين ابناء الشعب في الغرم والغنم ويذلل العقبات امام كل الكفايات .

ورابع هذه الاشياء هو الرجاء في ان تكون الرقابة على اعضاء البعثات في البلاد الاجنبية كأحسن ما تكون الرقابة المرشدة وفي ان تكون التدابير الضرورية لصيانة اخلاقهم في محيط مزدحم بالمغريات وتأمين معيشتهم في بيوت خاصة هي بيوت الطلبة تامة كاملة . ولا شك ان الرقابة قد تحسنت باحداث الملحقات الثقافية في بعض الاقطار بعد ان كانت موكولة الى القنصليات . ومن الخير ان يكون الملحق الثقافي ممن درسوا واختبروا الحياة في البلاد التي يعين فيها ليكون خير مرشد ودليل لاخوانه الطلاب . واخيراً وهو على ما ارى اهم هذه الاشياء هو ان من الخير ان يمكن رجال البعثات بعد عودتهم من العمل بما تعلموا ان يتمكنوا من خدمة امتهم ووطنهم بهذا الجهد الذي انفقوا وان لا يضطروا الى العمل في غير ما اعدوا له واختصوا به ، ولعل من الخير كذلك ان يكون هذا موضوع حديث آخر .

عبد المجيد صبحي

للشيخ محمد سعيد الكافي مخمساً

وخمر خد قد تلهب وقده وأزرى بمحمر الشقائق ورده
تحار الورى في كنهه اذ تحده يقولون من نار تكون خده
وقد قيل من ماء فيا بعد ما قالوا

فهل كان من نار ولم يذو غضه وهل كان من ماء ولم يذو ومضه
لقد أبرموا ماهان في القول نقضه
فلو كان من نار لما اخضر روضه
ولو كان من ماء لما احترق الخال